اشكالية التفكير النظري في البحوث السوسيولوجية العربية

د. أحمد موسى بدوي

جامعة بنها - مصر –

الملخص :

تحاول هذه الورقة التركيز على إشكالية التفكير النظري في البحوث المنتجة في ميدان علم الاجتماع العربي، وخاصة اطروحات الدكتوراه، في عدد من الجامعات المصرية، من أجل التعرف على أبعاد الممارسة النظرية التي يعتمدها الباحث العربي، من أجل تكوين إطاره النظري وأدواته المفاهيمية ،حيث نسعى إلى الإجابة عما يلي :

1. ما أساليب تحديد واختيار التوجه النظري في البحوث السوسيولوجية العربية ؟
2. كيف يقارب الباحث العربي التراث النظري والبحثي السابق، من أجل الاستفادة منه في صياغة الإطار التصوري للبحث ؟

Résumé :

Ce document de recherche se focalise sur la problématique de la réflexion théorique dans les recherches produites dans le domaine de sociologie arabe, notamment les thèses de doctorat; dans un certain nombre d'universités égyptiennes ; dans le but d'identifier les dimensions de la pratique théorique adoptées par le chercheur arabe, pour former son cadre théorique et ses outils conceptuels.

Nous essayerons, ici, de répondre aux questions suivantes:

1. Quelles sont les méthodes de l'identification et du choix de l'orientation théorique dans les recherches sociologiques arabes?

2. Comment le chercheur arabe approche l'héritage théorique précédent de la recherche, pour l'exploiter dans la reformulation du cadre conceptuel de la recherche?

مجلة التغير الاجتماعي — العدد الأول

تمهيد

تواجه المجتمعات النامية، ومنها المجتمعات العربية، أزمة حقيقية فى مجال الانتاج العلمى، تتمثل في عدم قدرة معظم البلدان النامية على سد الفجوة المعرفية بينها وبين العالم المتقدم، ويتحتم عليها إعلاء شأن المنهج العلمى، وتطوير نظام المعرفة العلمية. وتشير الدراسات والبحوث النقدية للإنتاج السوسيولوجى العربي، إلى أن إنتاج المعرفة السوسيولوجية العربية، لا يتم فى الغالب وفق ممارسات علمية انعكاسية reflexive practices، باستثناء عدد محدود من المنتجات التى استطاعت أن تقدم ممارسة علمية أصيلة genuine scientific practice، ولكن التقدم العلمى لا يبنى على الاستثناء، ولابد من وجود جهد علمي جماعي يسير وفقط استراتيجيات طويلة المدى.

ويبدو داخل هذا السياق أزمة فرعية أخرى، تتمثل فى ضعف قدرات التفكير النظري في انتاج البحوث في العلوم الاجتماعية، بسبب العديد من المشكلات البنيوية، وهىالأزمة التى من شأنها التأثير المباشر على جودة المنتج العلمى فى كافة ميادين العلوم الاجتماعية.

وهذا البحث، يحاول التركيز على **إشكالية التفكير النظري فى البحوث المنتجة في ميدان علم الاجتماع العربي**، وخاصة اطروحات الدكتوراه، في عدد من الجامعات المصرية، من أجل للتعرف على أبعاد الممارسة النظرية التى يعتمدها الباحث العربى، من أجل تكوين إطاره النظري وأدواته المفاهيمية.

يعتمد البحث على منهج التحليل النقدى للخطاب، الذى تطور على يد نورمان فيركلاف N. Fairclough وآخرون فى تسعينيات القرن الماضى، كما يعتمد البحث على نظرية الممارسة العلمية لدى بيير بورديو P. Bourdieu(1930-2002) كإطار نظري ملائم لفهم وتفسير نتائج التحليل النقدى لممارسة التفكير النظرى فى البحوث موضع الدراسة.

سؤال البحث الرئيسي: هل تحقق الممارسة النظرية فى البحوث المنتجة فى علم الاجتماع العربى، دورها فى إنتاج بحوث علمية عالية الجودة؟ ويبدو من هذا السؤال، أننا لن نتطرق بالتحليل للخطوات الاولى في بناء التصور النظري، ونقصد بها، تحديد اشكالية

البحث، وأهميته وأهدافه، لأن ذلك يحتاج إلى دراسة موسعة، ونكتفى بالتركيز على الأسئلة الفرعية التالية للإجابة على سؤال البحث الرئيسي:

3. ما أساليب تحديد واختيار التوجه النظري في البحوث السوسيولوجية العربية؟

4. كيف يقارب الباحث العربي التراث النظري والبحثى السابق، من أجل الاستفادة منه في صياغة الإطار التصوري للبحث؟

الكلمات المفتاحية: البحث السوسيولوجى العربى، التحليل النقدي للخطاب العلمي، ممارسة التفكير النظري.

أولا: منهج التحليل النقدي للخطاب:

يذهب فيركلاف إلى أن:" الحادثة الخطابية Discursive event ذات ثلاث أبعاد أو حقائق فهي أولا حادثة مكتوبة أو منطوقة ، أي أنها تمثل نصا Text ، وثانيا أنها شاهد أو جزء من ممارسة خطابية ففي سياقها يتم إنتاج وتأويل النص، وأخيرا فهي جزء من الممارسة الاجتماعية وثيقة الصلة[1]

وعليه فإن الإطار التحليلي التكاملي في نظرية فيركلاف يقوم على ثلاثة أسس مرجعية:" **فهو أولا يستفيد من التحليل النصي text analysis الذي يقدمه التراث اللساني، وثانيا يستفيد من تحليل المايكروسوسيولوجي، ونظريات التأويل داخل علم الاجتماع بما في ذلك الاثنوميثودولوجيا ، وتحليل المحادثة، وأخيرا يستفيد من تحليل الماكروسوسيولوجي للممارسة الاجتماعية بما في ذلك نظرية ميشيل فوكو**[2] .

يحاول فيركلاف تأسيس نموذج نظري ومنهجي لتحليل الخطاب ثلاثي الأبعاد، بحيث إنه لا يمكن فهم الخطاب إلا من خلال تحليل **أشكال اللغة المستخدمة في النص، والكشف عن علاقة هذا الخطاب بغيره من أنواع الخطاب، وربط نظام الخطاب بالممارسة الاجتماعية الأعم**.إن فيركلاف ينطلق في المسارات الثلاثة بشكل متزامن، فاللغة يبحثها لكي يحدد نمط الخطاب الظاهر في النص موضع البحث، وهذه النمط هو في ذات الوقت جزء من نظام

معين للخطاب المتشكل اجتماعيا في لحظة تاريخية محددة، وهذا النظام كما يرى فيركلاف:"**جزء من أنظمة للخطاب سائدة في المجتمع والتي تتشكل عن طريق علاقات القوة في المؤسسات الاجتماعية وفي المجتمع بشكل عام**[3].

أي أن منهجية فيركلاف تقوم على ثلاث مستويات للتحليل هي: (1) **تحليل البنية اللغوية للنص(التحليل على مستوى النص) ؛ (2) تحليل العلاقة بين الخطاب والحادثة التواصلية حيث يشتركان معا في إنتاج واكتساب النص، ويحدد فيركلاف مستوى هذه العلاقة (التحليل على مستوى الممارسة الخطابية)؛ (3) تحليل العلاقة بين الممارسة الخطابية والممارسة الاجتماعية من جهة أخرى (التحليل على مستوى الممارسة الاجتماعية).**

وعليه فإن نظرية التحليل النقدي للخطاب تقوم على محاولة فهم نوع الخطاب موضوع البحث، أو فهم أنواع الخطاب السائد لدى الجماعة موضوع البحث عن طريق فهم وتحليل النص المكتوب أو المنطوق أو حتى الإشاري والمرئي، ثم تحديد نظام الخطاب السائد وثيق الصلة بالمجال الاجتماعي الذي تتم فيه إنتاج هذه الخطابات، ثم الكشف عن العلاقة بين الخطاب موضوع البحث والممارسة الاجتماعية، وسؤالها النقدي النهائي هو: هل الممارسة الخطابية تسهم في إعادة إنتاج نفس العلاقات والممارسات الاجتماعية السائدة، أم أنها تسهم في إعادة تشكلها على نحو مغاير؟

ونذهب إلى أنه يمكن استخدام منهج التحليل النقدي للخطاب، في تحليل المنتجات العلمية، بكافة أنواعها، ومن ضمنها دراسة أساليب التفكير النظري في البحوث الاجتماعية العربية، ونقدم التعريف الاجرائي التالي: **منهج يقوم على افتراض وجود ارتباط بين كل من : النص العلمي ومنتجه والمجال العلمي والمجالات المشكلة للبناء الاجتماعي في مرحلة تاريخية محددة.ويهدف إلى الكشف المنظم عن العلاقات القائمة بين الممارسة الخطابية العلمية وبين السياقات الاجتماعية المتنوعة، وتعتمد آلية التحليل على تصنيف افتراضي قبلي للنماذج المحتملة، ثم محاولة اختبار التصنيف بتحليل النص، وذلك باستخراج الحادثات الخطابية – العبارات الجوهرية- الدالة على وجوده ، ثم تفسير النتائج بمرجعية نظرية ملائمة.**

ثانيا: التصنيف الافتراضي لأنواع الممارسات النظرية في البحوث الاجتماعية العربية

ذكرنا في التعريف الاجرائي أن آلية التحليل تعتمد على تصنيف افتراضي قبلي للنماذج المحتملة، ثم محاولة اختبار التصنيف بتحليل النص. ولتصنيف خطاب المرجعية النظرية، قمنا بالتركيز على (1) أساليب تحديد التوجه النظري للبحث، (2) أساليب تحليل الدراسات الامبيريقية وثيقة الصلة، وكيفية الاستفادة منها في صياغة الإطار التصوري للبحث. وبناء على الشواهد والدراسات السابقة التي رجعنا إليها (زايد.1995[4]، يسين.1995[5]، عبد الوهاب.1996[6]، محمود.2003[7]، دسوقي.2004[8]) يمكن استنباط وجود أنواع من خطاب ممارسة التفكير النظري في البحوث العربية، وقد وضعنا تعريف مبدئي لكل نوع نفترض وجوده، وسيتم اخضاع هذه الافتراضات للاختبار أثناء تحليل عينة البحوث التي سنقوم بتحليلها. ويمكن وضع الأنواع الخطابية المفترض وجودها على الرسم التخطيطي التالي:

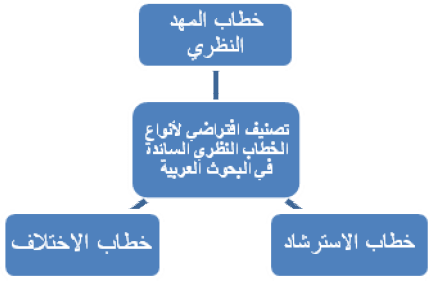

1- خطاب المهدالنظري :

هذا النوع من التفكير والممارسة النظرية، ربما يمثل حالة خاصة بالإنتاج العلمي المصري أو العربي بصفة عامة، ويعني أن يقوم الباحث بالابتداء من أفكار المؤسسين، والمفترض أن هذه الأفكار هي محل دراسة من نقاد النظرية الاجتماعية، والمهتمين بتاريخ الفكر الاجتماعي، ولكن يصعب الاعتماد عليها في البحوث الامبيريقية، فلابد من احترام التراكم العلمي داخل نظريات علم الاجتماع ، فأفكار أوجست كونت (1798-1857) ، وكارل ماركس(1818-1883)، وإميل دوركايم (1858-1917)، وماكس فيبر(1864-1920) على سبيل المثال هي أفكار تأسيسية، يشار إليها باختصار إذا كانت هناك

ضرورة لذلك، ثم يتم تجاوزها بعرض الأفكار النظرية الحديثة – التي تأسست على نقد هذه الأفكار الكلاسيكية -لأن البحث الامبيريقي يحتاج إلى أُطر نظرية حديثة متسقة مع الواقع الاجتماعي المتغير.

2- الخطاب الاسترشادي

ونفترض أن الخطاب الاسترشادي، يمكن أن يتنوع إلى ثلاث أنواع: (خطاب الاتفاق النظري العلمي، خطاب الاسترشاد النظري المتعسف، خطاب الاسترشاد النظري شبه العلمي). فوفقا لنظرية توماس كون فإن العلم في كل مرحلة من مراحل تطوره يسوده نموذج نظري يقدم حلا لكل الألغاز وثيقة الصلة، وينشأ التقدم العلمي من حالة التوتر التي تصيب هذا النموذج عندما يعجز عن حل بعض المعضلات، فيصفها النموذج في البداية بأنها شواذ أو استثناءات، ثم مع الوقت يتم تقنين هذه الاستثناءات وفقا لقوانين نموذج جديد، ومع الوقت يصبح الجديد استرشاديا.

والخطاب النظري الاسترشادي، هو الخطاب السائد في الإنتاج السوسيولوجي الخاص برواد علم الاجتماع في مصر، وبرغم أهميته العلمية، إلا أنه من ناحية أخرى لا يدفع الفاعلين تجاه الإبداع وصنع الاختلاف العلمي، وأعلى مستوياته**خطاب الاتفاق العلمي**، وهو الأقرب لفكرة النموذج الإرشادي لدى توماس كون، وعليه سارت بحوث الرواد، وفيه يتم طرح وجهة نظر النص المنتج، وتدعيمها بالاستشهادات بمرجعية نظرية ما، وهذا النوع من الخطاب إذا تم على أسس علمية، فإنه يؤدي إلى ترسيخ النموذج النظري المختار، ويعد البحث في هذه الحالة اختبارا جديدا لهذا النموذج.

إلا أن هناك مستوى آخر تختلف بنيته عن مقصود نظرية توماس كون، ويمكن أن يظهر في الممارسة النظرية السوسيولوجية العربية، وهو**خطاب الاسترشاد المتعسف،** وسبب الاختلاف، أن الباحث الذي يمارس هذا النوع الخطابي، يتورط في الاسترشاد، بمرجعية نظرية ما، دون وعي علمي كاف، فالاسترشاد لا يتأسس على اختيار علمي حر، ولا يبذل الباحث جهداً في تبرير هذا الاختيار، ولكنه يمثل في معظم الأحيان عادة في البحث، ومجاراة وتقليد لبحوث أخرى، وأحيانا يقوم البحث بالاسترشاد بعدة توجهات نظرية، متناقضة في جوهرها، ويكون الغرض من الاسترشاد غير واضح في ذهن الباحث،

فلا يرجى من الاسترشاد التوصل لآلية تفسير ملائمة للنتائج التي يتحصل عليها من دراسة الظاهرة، وتشير الشواهد إلى أن خطاب الاسترشاد يتم عرضه في الفصول المتقدمة من الرسالة العلمية، ولا يتم الرجوع إليه بعد ذلك، أي أنه لا يقدم أي حل لأي لغز من الألغاز السوسيولوجية، ولذلك فإنه خطاب يختلف عن نموذج توماس كون .

وأحيانا يكون الاختيار الاسترشادي برغم تعسفه ملائما لبحث الموضوع، ويتم بواسطته تبرير النتائج، وفي أحيان أخرى يكون هذا الاختيار غير ملائم، ويغلب على الفاعلين في إطار هذا النموذج التعسفي استخدام حرفية لي ذراع الواقع لكي يتسق مع المقدس النظري.

وبين النموذج الاسترشادي العلمي والمتعسف يمكن أن يظهر من تحليل خطاب الإنتاج العلمي نماذج أخرى منها**خطاب الاسترشاد النظري شبه العلمي**: وفيه يقوم الفاعل المنتج باختيار النظرية الملائمة لموضوع البحث ، ويستخدمها كإطار نظري لتفسير نتائج بحثه ، دون أن يحدث بها أي تغيير أو تعديل، ودون طرح لوجهة نظر الباحث، ويعتمد في عرض خطوطها العامة على نصوص ثانوية غير أصلية دون حذف أو إضافة ، والذي يمنح هذا النوع من الخطاب شبهة العلمية هوالملائمة النظرية ، أما إذا جانب الباحث الصواب، فإن هذا النوع من الخطاب يتحول إلى**خطاب استرشادي تعسفي**أو غير مبرر، وهو ما سينحرف بالتفسير.

3-خطاب الاختلاف :

ونفترض أيضا أن خطاب الاختلاف النظري، يمكن أن يتنوع إلى ثلاث أنواع: (خطاب الاختلاف النقدي الخلاق، خطاب الاختلاف النظري التعسفي، خطاب الاختلاف النظري الشكلي)فهو تماما كخطاب الاسترشاد، تتعدد مستوياته أو أنواعه ، ونذهب إلى أن الباحث الذي يعتمد في تفكيره وممارسته النظرية على**خطاب الاختلاف النقدي الخلاق**، يقوم بتفنيد جزء أو كل مرجعية نظرية ما، واستنباط فروض نظرية جديدة، ثم اختبار هذه الفروض بالدراسة الميدانية، حيث يقوم الباحث هنابتفنيد وجهات النظر السابقة عليه، وتقديم المبررات المنطقية والتطبيقية الكافية لاستبداله بنموذج تصوري

جديد أو تطوير لجزء من هذا النموذج. ويذكر أن ممارسة هذا الخطاب في السوسيولوجيا العالمية، هي التي أدت إلى تطوير النماذج الكلاسيكية (الماركسية، الفيبرية، الدوركايمية) وظهور نماذج جديدة، تمثل قطيعة أو تجديد لهذه الاطر الكلاسيكية. مثلما تطورت الماركسية الكلاسيكية، إلى البنيوية الماركسية على يد ألتوسير وبولانتزاس، ثم تطورت الأخيرة إلى الماركسية الجديد على آخرين مثل اريك اولن رايت. لقد تمت هذه التطورات النظرية، كما هو معروف، بناء على حركة تفنيد نقدي واسع. واختبار للمقولات النظرية في العديد من الدراسات الامبيريقيةونفس الأمر يمكن أن يقال عن النموذجين الفيبري والدوركايمي، وكذلك التفاعلية الرمزية الأمريكية، خلاصة القول أن هذا النوع من الممارسة النظرية، هو جوهر التقدم العلمي، وعن طريقه تظهر إلى الوجود النماذج المعرفية الجديدة .

وفي مقابل الخطاب السابق، يحتمل ظهور نوع سلبي هو**خطاب الاختلاف التعسفي** : ويظهر هذا النوع عند تحليل الدراسات الامبيريقية وثيقة الصلة، حيث يشيع في البحوث العربية، شعور عدائي تجاه الدراسات السابقة بصفة عامة، ويكون هدف البحث الجديد هو التايز والاختلاف عن هذه الدراسات المعادية، وليس التكامل والتطوير.

ويمكن أن يظهر **خطاب الاختلاف الشكلي** ، عند تناول الدراسات السابقة وثيقة الصلة ، ولا يتعرض الباحث الممارس لهذا النوع، إلى تفنيد التوجه النظري للدراسات السابقة .ويكتفي بتقديم عرضا وصفيا مختزلا يقوم على المقارنة الشكلية، بهدف إثبات التمايز والاختلاف الشكلي (اختلاف في اتساع وضيق الموضوع ، اختلاف نوع الأهداف، اختلاف مجتمع البحث ، اختلاف وسائل وطرق جمع وتحليل البيانات) وهذا النوع من الخطاب لا يحقق أي تحليل نقدي لعناصر الدراسات السابقة، ونقاط الاتفاق العلمي ونقاط الخلاف، وغيرها من العناصر المعول عليها في التراكم المعرفي والتقدم العلمي.

ويتضح من الافتراضات السابقة، أن الممارسة النظرية الأصيلة في أي بحث جاد، من المفترض أن تتجه نحو العلميةوتسهم في تقدم العلوم الاجتماعية، إذا كانت تتبع أحد النوعين التاليين:(1)**خطاب الاتفاق العلمي، التابع للخطاب الاسترشادي، وهو النوع** الذي يؤدي إلى ترسيخ النموذج النظري المختار، ويعد البحث في هذه الحالة اختبارا جديدا لهذا

النموذج. (2) **خطاب الاختلاف النقدي الخلاق**، والذي يعد أعلى درجات التفكير والممارسة النظرية، فهو كما ذكرنا، يعتبر جوهر التقدم العلمي، وعن طريقه تظهر إلى الوجود النماذج المعرفية الجديدة.

ويبقى السؤال: هل يتبع التفكير والممارسة النظرية في البحوث الاجتماعية العربية، أحد هذين النوعين الأخيرين، أم يتبع بقية الأنواع التي افترضناها، أم هناك أنواع خطابية أخرى لم نستطع استنباطها، هذا السؤال نجيب عليه في الجزء الأخير من هذه الورقة، من خلال تحليل عينة من بحوث الدكتوراه في عدد من الجامعات العربية.

ثالثا: حالة التفكير والممارسة النظرية في البحوث الاجتماعية المصرية

عينة البحث:

قمنا باختيار عينة من بحوث الدكتوراه المجازة في الجامعات المصرية خلال الفترة (2000-2010)، مبتعدين عن اختيار عينة من بحوث الماجستير، حيث أن الباحث في مرحلة الماجستير، ما يزال في طور التشكل العلمي، وآثرنا قصر العينة على بحوث الدكتوراه، حيثمن المفترض أن تكتمل المهارات البحثية، بتطور الرأسمال العلمي للباحث عند بلوغه هذه المرحلة التي تمثل قمة التكوين العلمي رفيع المستوى. وقد امتنعنا عن ذكر اسم الباحث(ة)، وكذلك ذكر عنوان البحث بالكامل،لتلافي عيوب التشخيص، وبغية تركيز الانتباه على موضوعية التحليل النقدي للخطاب العلمي. وقد راعينا أن يكون الاختيار متنوعا من حيث التخصص الدقيق، وممتدا عبر تلك الفترة على النحو التالي:

التخصص الدقيق	سنة اجازة الاطروحة	م
علم اجتماع التنمية	2000	1
علم الاجتماع الديني	2001	2
علم الاجتماع العائلي	2005	3
علم الاجتماع السياسي	2005	4
الانثربولوجيا الثقافية	2007	5
الطبقة الاجتماعية	2010	6

وربما يكون اعتمادنا على هذه العينة المحدودة مؤثراً على علمية تعميم النتائج، غير أن مبرر الباحث في الاكتفاء بهذه العينة، أن كل بحث من البحوث المختارة داخل العينة، يعتبر في ذاته، ممثلا لحالة الانتاج العلمي في الاكاديمية التي أجازته، فهو (1) يتم تحت اشراف هيئة علمية. (2)ويجاز من لجنة تضم كبار الأساتذة في مجال التخصص. وبالتالي فإنه يختزن العديد من الدلالات التي تساعد على التعميم، بحد أدنى على مستوى الجامعة التي أجازت المنتج.

1خطاب المهد النظري:

في دراسة سوسيوانثربولوجية لبحث ثقافة الاعاقة بالتطبيق على أسر الأطفال المعاقين في إحدى المدن المصرية، نجد أن الباحث، لم يبذل جهدا في عرض النظريات المرجعية المختلفة، التي يمكن الاستفادة منها في دراسة الموضوع، وقرر مباشرة أن يستعين بالنظرية الوظيفية، في مرحلتها التأسيسية، وهو ما يظهر من العبارة الافتتاحية التالية، التي كتبها الباحث لتحديد المدخل النظري لدراسته:

(ويتبنى الباحث الاتجاه الوظيفي لدى مالينوفسكي في الدراسة الراهنة، ومن هنا تركز النظرية الوظيفية على العلاقة بين الكل وأجزائه مع توجيه أهمية خاصة إلى الوظائف التي تكون محصلة لهذه العلاقة، حيث أن كل جزء من النسق يلعب دوراً في أداء وظيفة الوحدة الكلية،...) (دكتوراه، 2007)

هذه الممارسة تتبع خطاب المهد النظري بامتياز، فهي أولا لم تعرض للقارئ أية بدائل نظرية أخرى لمقاربة مشكلة البحث، ولكنها اعتمدت الانتقاء المباشر للنظرية الوظيفية، على الرغم من أن موضوع البحث في حاجة ماسة لأدوات نظرية أخرى، مثل التراث الأنثربولوجي الماركسي، حيث أن موضوع الاعاقة يرتبط في المجتمعات النامية -ومنها المجتمع المصري- بقضايا الفقر والمرض والجهل، وعلاقات الاستغلال، الخ. ومن ثم فإن اعتماد الباحثعلى نظرية محافظة لن يمكنه من فهم وتفسير العلاقة هذه الظاهرة بالسياق الاجتماعي العام.

ثم لم يكتف الباحث بهذه الانتقائية، بل توقف عند نظرية مالينوفسكي،(1884-1942)Malinowski ولم يتجاوزها بعرض اسهامات نظرية هامة، ظهرت في نفس المرحلةالتأسيسية للأنثروبولوجيا، وخاصة اسهامات روث بنديكت (1887 – 1948) Benedictوكذلك اسهامات تلميذتها مارجريت ميد. ومن المعروف أن الاتجاه الوظيفي في الانثربولوجيا، بعد أن شهد ازدهاراً في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي -خاصة في الدراسات الانثربولوجية الأمريكية-إلا أن هذا الاتجاه فقد مكانته العلمية منذ السبعينيات من القرن الماضي، بعد أن رفض الانثربولوجيون النظرة الاستاتيكية لنظرية مالينوفسكي، بسبب أنها: (1) تنطوي على مشكلات منطقية وابستمولوجية كبيرة، تعوق عملية التفسير العلمي، (2) فضلا عن أنها نظرية ضد التاريخ، ولا تعترف بأي دور للبحث التاريخي في الظاهرة. وبناء على هذه المشكلات النظرية والمنطقية، ظهرت العديد من الاسهامات التي تقف ضد النزعة الوظيفية المحافظة، حتى من داخل المهتمين بالتيار الوظيفي.

إذا فنحن إزاء مشكلة في القراءة النظرية بصفة عامة، فالرأسمال العلمي النظري للباحث العربي بصفة عامة، يتم بناءه بشكل عفوي، لا يراع التنوع والثراء الموجود في التراث

النظري العالمي، ويتضح ذلك من خلال المثال الذي نعرض له، فالباحث قد استعان في عرض النظرية التي يتبناها على مصادر وسيطة، معظمها باللغة العربية، ومعظمها مؤلفات في موضوع مدخل الأنثروبولوجيا، كتبت لأغراض مدرسية، وليست بحثية، كما يتضح من الجدول التالي:

المؤلف	عنوان الكتاب	بيانات النشر
فاروق اسماعيل	المدخل الى الانثروبولوجيا: النظرية والمنهج	الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، د.ت
مرسي حلس، نائلة الأغا	الأنثروبولوجيا الاجتماعية: المجالات النظرية والتطبيقية	غزة، جامعة الازهر،1998
محمد الجوهري	الأنثروبولوجيا: أسس نظرية وتطبيقات عملية	الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1996
ايفانز بريتشارد (ترجمة أحمد زايد)	الأنثروبولوجيا الاجتماعية	القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ط6، 1980
عبدالله غانم	الأنثروبولوجيا الثقافية	الاسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 2004
محمد الغامري	مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة	الاسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1989
فاروق احمد مصطفى	تمهيد ودراسات في علم الانسان	الاسكندرية، مطبعة التوني، 1994
السيد علي شتا	نظرية علم الاجتماع	الاسكندرية، المكتبة المصرية، د.ت

إن تصنيف هذه الممارسة النظرية، كممارسة **تتبع خطاب المهد النظري**، يرجع لاعتمادها على نظرية مرجعية كلاسيكية، جرى عليهاالكثير من النقد والتفنيد والمراجعة طوال عقود طويلة في الاكاديميات العلمية، ولم يستفد الباحث من هذا التراث النقدي، ومعنى الاستعانة بالمقولات النظرية الأولية، في بحث تطبيقي في بداية القرن الحادي والعشرين، هو ضرب عرض الحائط بالتراث النظري المتراكم عبر هذه السنين، ويجعل تفسير النتائج بناء على هذه المرجعية التمهيدية، تقع خارج المجال العلمي، لأنها لا تتبع شرط التراكم والبناء على التراث السابق لفهم اللاحق من الظواهر.

وربما يثار التساؤل الآتي:أليس من الممكن أن يرى الباحث في النظرية التأسيسية، ما لم يره النقاد خلال تلك الفترة؟ والاجابة بنعم، من الممكن أن يرى الباحث في النظرية الكلاسيكية، قدرة تفسيرية جديدة لم يرها النقاد، **ولكن ذلك يتطلب من الباحث تفكير وممارسة نظرية ابداعية، تتم على مرحلتين:** (1) مراجعة النظرية من خلال المصادر الأصلية، أي أعمال مالينوفسكي نفسه في مثالنا الراهن. (2)ثم اظهار الأفكار النظرية التي أغفلها النقاد، بمعنى نقد نقاد هذه النظرية. وبما أن الباحث لم يقم بذلك، كما يتضح من جملة المصادر الثانوية (مدرسية الطابع)التي رجع إليها، فقد استقرت ممارسته النظرية عند مستوى المهد النظري.

1- خطاب الوعي النظري المشوش:

هذا النوع لا يتبع أنواع خطاب: المهد النظري، أو خطاب الاسترشاد أو الاختلاف التي افترضنا وجودها. ولكنه نمط خطابي جديد، ظهر أثناء تحليل عينة الدراسة، وينتج هذا النوع عن وجود مشكلة في التعاطي مع النظريات السوسيولوجية، وبصفة خاصة كيفية تصنيف هذه النظريات. حيث يظهر افتقار بعض الباحثين، للمعرفة النظرية الكافية لوضع كل نموذج نظري في إطاره الصحيح، ضمن تراث النظرية في علم الاجتماع، وهي مشكلة ترتبط بضعف المحتوى النظري الذي يُفرض على الباحث دراسته في المرحلة الجامعية وبعد الجامعية، وغالبا لا يرهق الباحثون أنفسهم عناء البحث عن مصادر نظرية أخرى بهدف اثراء معرفتهم النظرية، أي أن فقر الرأسمال النظري للباحث، هو نتاج

مشترك لضعف بنيوي مزمن في الاكاديمية المصرية، يعززه ضعف الهابيتوس الخاص بالباحث، واستعداداته لاثراء مصادره المعرفية.

وقد ظهر هذا النوع الخطابي الجديد في بحث يعالج موضوع الخطاب السياسي للطبقة الوسطى (دكتوراه، مصر، 2005)، حيث حاول الباحث التوصل لاطار نظري، مبني على مراجعة للنظريات التي تناولت الطبقة، بالتركيز على: (1) النظرية الماركسية الكلاسيكية، والجديدة، (2) الاتجاه الوظيفي الكلاسيكي والمحدث، (3) الطبقة لدى عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو، (4) الطبقة لدى علماء الاجتماع المصريين. ويزعم الباحث في مقدمة الفصل، أنه سينتهي إلى استخلاص نظري لمفهوم الطبقة من خلال هذه المراجعة النظرية الطموحة.

وقد نجح الباحث في تعقب الأفكار النظرية حول الطبقة، داخل التراث الماركسي، منتقلا من الأفكار التأسيسية، ثم البنيوية الماركسية لدى بولانتزاس، ثم الماركسية الجديد لدى اريك اولن رايت. ولكنه عندما بدأ في عرض التراث النظري البنائي الوظيفي، اتضح أن لديه مشكلة في الوعي السوسيولوجي النظريفعندما انتقل الباحث إلىمبحث "الطبقة عند أنصار الاتجاه الوظيفي" يقوم بوضع ماكس فيبر على رأس الاتجاه الوظيفي، دون أن يتعرض لأفكار الاتجاه الوظيفي الكلاسيكي من قريب أو بعيد، كما يقوم بوضع عالم الاجتماع البريطانيجون جولدثورب (Goldthorpe (1935- -وهو المنتمي للاتجاه الفيبري الجديد- ضمن الاتجاه الوظيفي أيضا.

الباحث هنا لم يتمكن من التمييز بين ثلاث اتجاهات نظرية كبرى في مقاربة الطبقة الاجتماعية، وهي (الاتجاه الماركسي، والاتجاه الفيبري، والاتجاه الدوركايمي). وخلط بشكل مشوش بين الاتجاهين الفيبري والاتجاه الوظيفي، وترتب على هذا الخلط مشكلة ابستمولوجية أكيدة في استخلاص تصور نظري ملائم لبحثه. فمن المفترض من الناحية الابستمولوجية، أن يقوم الباحث في نهاية الفصل باستخلاص الأفكار الرئيسية التي عرضها في ثنايا الفصل، ثم يناقشها، فيتفق أو يختلف مع بعضها ذاكرا المبرر العلمي لهذا الاتفاق أو الاختلاف، ثم ينتهي بتحقيق هدف الفصل، وهو استخلاص مفهوم الطبقة كما وجهة نظر الباحث.

ولكن ما حدث أن الباحث لم يقم بهذه العمليات الضرورية في التفكير والممارسة النظرية، واتجه مباشرة في نهاية الفصل للاستعانة بمفهوم نيكوس بولانتزاس (1936-1979) N.Polantzasمدعيا أنه مفهوم مناسب شريطة أن يؤلف بين مفهوم بولانتزاس ومفهوم أحد علماء الاجتماع المصريين، وهو الدكتور عاطف غيث، كما يبدو من العبارات التالية:

(سوف يعتمد البحث على أفكار بولانتزاس المركزة عن الطبقات الاجتماعية، (...) ولكن مع مراعاة الظروف البنائية الراهنة للمجتمع المصري ، (...) وهو ما يعني أن الواقع يفرض علينا إضافة أبعاد جديدة أو استبعاد أخرى. حيث يعترف الباحث بما قرره عاطف غيث من أن الطبقات الاجتماعية ليست حقائق في حد ذاتها بقدر ما هي وجهات نظر يكونها الباحث أثناء ملاحظته لموضوع دراسته ...) (دكتوراه، 2005)

المتأمل لهذه العبارات الجوهرية السابقة، يكتشف أن الباحث سوف يعتمد على المفهوم التاريخي المادي لبولانتزاس، وكذلك على مفهوم غيث الذي يعتبر الطبقة مجرد تصور يكونه الباحث عن جماعة من أفراد المجتمع أثناء دراسته.أي أننا أمام قضيتين متناقضتين، لا يمكن التأليف بينهما -كما فعل الباحث- لغرض استخلاص اطار نظري حول مفهوم الطبقة. ولن ينتج عن هذا الاستخلاص النظري المشوش، أية قدرات تفسيرية، بل على العكس يمكن أن يؤثر بالسلب على النتائج النهائية للبحث.وهذه الأخطاء مقبولة في مراحل اكتساب المعرفة وفي قاعات التدريب، أما ظهورها في أطروحة الدكتوراه، فهذا يعني وجود خلل عميق في اكتساب مهارات التفكير والممارسة النظرية، وافتقار للمهارات المنطقية في صياغة الاطر النظرية، والكتابة العلمية بصفة عامة. ومجموع تلك الممارسات النظرية والابستمولوجية، يمثل النمط الخطابي الذي نحن بصدده، وهو خطاب الوعي النظري المشوش.

2- خطاب القدرة النظرية المنعدمة:

وهو نمط جديد من الممارسة النظرية، لم يكن ضمن الافتراضات السابق ذكرها (المهد، الاسترشاد، الاختلاف) والحقيقة أن العثور على هذا النمط مثل لنا مفاجأة غير سارة

بطبيعة الحال، تدل على مدى التدهور في بحوث الدكتوراه في بعض أقسام علم الاجتماع في الجامعات المصرية.

ففي أحد البحوث المهتمة بدراسة نسق القيم وأثره على التنمية المحلية ، انطلق البحث في الفصل الخاص بالاتجاهات النظرية من تصنيف لا ينطوي على مضمون علمي، حيث قسم هذا الفصل إلى ثلاثة أجزاء:الأول: يتعلق بالاتجاهات الكلاسيكية في دراسة التنمية، والثاني: يتعلق بالاتجاهات المعاصرة ، والثالث:يتعلق بمفهوم التنمية من منظور إسلامي. وتوقعنا أن يراجع الباحث التراث السوسيولوجي الكلاسيكي ثم المعاصر، ثم يقدم رؤية سوسيولوجية اسلامية لأثر منظومة القيم على التنمية، غير أننا لم نجد شيئا من ذلك، فالباحث خرج من حلبة السوسيولوجيا، وبدأ يكتب بطريقة مشوشة وملتبسة، لا يستطيع أن يميز بين الدراسة العلمية، وبين التراث الأدبي أو الفكري القديم، كما تدل العبارات الجوهرية التالية:

[أولا :أهم الاتجاهات الكلاسيكية في دراسة التنمية : لقد نادى فلاسفة ومفكري الحضارات القديمة بضرورة ... (أ) في الفكر المصري القديم .... (ب) في الفكر الهندي القديم ... (ج) في الفكر الصيني القديم ... (د) في الفكر اليوناني ... (و) في الفكر الروماني القديم ... (ز) في الفكر المسيحي ... (ح)في الفكر الإسلامي .... (ط) في الفكر الأوروبي الحديث ... / ثانيا : أهم الاتجاهات المعاصرة] (دكتوراه- مصر، 2000)

وبتتبع العبارات الجوهرية المتعلقة بالجزء الثاني من الفصل المتعلق بالاتجاهات المعاصرة في دراسة التنمية، تظهر مشكلة عدم الوعي بمراحل التطور في المعرفة السوسيولوجية الراهنة، فالباحث يتعامل مع الأفكار الكلاسيكية في علم الاجتماع، بوصفها أفكارا معاصرة، إلى جانب استخدام مبررات تنم عن وجود مشكلة في عمليات الفهم السوسيولوجي بصفة عامة، فالباحث كلما أراد شرح قضية، يخرج من حيث لا يدري، من حلبة التفكير العلمي السوسيولوجي، متلمساً الأفكار الشارحة من داخل المعرفة العفوية التلقائية المتداولة في الحياة اليومية، وبأسلوب ركيك في الكتابة، لا يرقى لمستوى الكتابة العلمية، ما يجعلنا نصنف هذه الممارسة، ضمن نوع خطابي جديد، سميناه خطاب القدرة النظرية المنعدمة، ولا نحتاج لبرهان أكثر من العبارات التالية:

[ثانيا أهم الاتجاهات المعاصرة في دراسة التنمية :تعد التنمية الريفية من القضايا الجوهرية التي اهتم بها الكثير من العلماء ، ... ، حيث إن الريف هو المخزون الرئيس للموارد الأولية والغذائية التي يحتاج إليها العالم المعاصر ... لذلك ظهرت اتجاهات معاصرة في دراسة التنمية كل حسب مدخله، وأيديولوجيته ... ومن هذه الاتجاهات ـ الاتجاه الماركس (*) (ماركس والشيوعية): ... / الاتجاه الرأسمالي (ماكس فيبر): ... لقد ذهب فيبر إلى أن أغلب رجال الأعمال ، وكبار الأثرياء من البروتستانت، كما أن المناطق التي شهدت نموا رأسماليا مبكرا – في بداية القرن السادس عشر – هي مناطق تسودها الديانة البروتستانتية مثل هولندا، وانجلترا، وأمريكا (4) علما بأن هناك مجتمعات عديدة قد حققت تقدما كبيرا في مجال التنمية، ولا يدين أهلها بالبروتستانتية مثل: اليابان ، ومجموعة دول جنوب شرق آسيا ودول الخليج ... الخ] (دكتوراه- مصر، 2000)

والحقيقة أن هذا النوع الخطابي، يثير الكثير من علامات التساؤل والمسائلة: حول أسلوب تقييم وتحكيم البحوث، وكيف يمكن الإبقاء على أخطاء علمية بهذا الحجم في تقرير رسالة دكتوراه، كما يثير تساؤلا ملحا، عن الممارسة الإشرافية على البحوث، فالمثال يوضح أن هذا الباحث،ترك دون أي توجيه أو إرشاد علمي، ودون تطوير للمعرفة السوسيولوجية، وبالتالي فليس من المتوقع أن يقدم هذا النص، أكثر من أفكار إيديولوجية انطباعية، لا تنتمي للحقل العلمي.

3- خطاب الاسترشاد والاختلاف المتعسف:

كنا قد افترضنا وجود مستقل لكل من خطابي الاختلاف والاسترشاد، غير أنه بتحليل العينة، ظهر أن هناك ارتباط بين وجود النوعين، وأنه يمكن أن يضمهما نوع خطابي واحد، غالبا ما ينشأ بسبب التحيز النظري لتوجه معين، ونحن هنا بإزاء نوع من الخطاب، يعتبر من قبيل خطاب الاسترشاد والاختلاف المتعسف، فالاسترشاد بمرجعية نظرية، مبني على الاختلاف المتعسف مع نظرية أخرى. والتحيز المقصود يعني عدم اللجوء إلى مبدأ التفنيد النقدي للمقولات النظرية، ولكن التسليم المبدئي بموقف مع/ضد.

فعند تحليل أحد بحوث العينة، المهتمة بظاهرة التدين، اتضح أن الباحث، قد توقفت معرفته النظرية عن حدود، الثنائية البنائية الوظيفية والماركسية، أو ما يطلق عليه أحيانا بالاتجاهين المحافظ والراديكالي في علم الاجتماع، وهي الثنائية التي تم تفنيدها ونقدها بشكل واسع في بحوث علم الاجتماع اعتباراً من بداية الثمانينيات من القرن الماضي، ولكن يبدو أن اعتماد الباحثين على القراءة النظرية المدرسية، حال دون التعرف على هذا التطور في ميدان النظرية الاجتماعية، كما يظهر بتتبع العبارات الجوهرية التالية:

[إن تشكيل الوعي الإنساني الاجتماعي كان ولا يزال الهدف الرئيسي لعلم الاجتماع ... ، ولهذا تبلور في ذلك العلم منذ نشأته تياران رئيسيان ،أحدهما يهدف إلى تزييف هذا الوعي وتجهيل هذا الواقع ، أي جعله موضوعا غير قابل للفهم والاستيعاب وبالتالي يصبح عاجزا عن تغيير مساره ، والآخر يهدف إلى تحقيق فهم موضوعي لهذا الواقع وفض المجهلة عنه ، أي جعله قابلا للفهم وبالتالي جعل الإنسان قادرا على تناوله بالتقنين وفقا لإرادته ... واتخذ الاتجاه الأول لتحقيق أهدافه أساليب متنوعة منها محاولة إلغاء الذات المفكرة لدى الباحث الاجتماعي .] (دكتوراه، 2001)

وعند عرض الدراسات السابقة وثيقة الصلة بموضوع البحث، استمر التحيز الإيديولوجي التقليدي مسيطرا على النص، وذلك بمحاولة الاختلاف المتعسف مع الدراسات التي اتخذت من البنائية الوظيفية مرجعا نظريا لها، وفي المقابل الاسترشاد التعسفي أيضا مع الدراسات التي انطلقت من المرجعية البنائية الماركسية. والعبارات التالية تمثل التعليقات السلبية النهائية التي كتبها الباحث تعليقا على تحليله لعدد من الدراسات السابقة، ذات مرجعية بنائية وظيفية ويظهر منها هذا التحيز المعتمد على أحكام قيمية وليس على نقد علمي منضبط:

[1-إن التوجه النظري في هذه الدراسة – السابقة- قد دفع الباحثة إلى التعامل مع المفاهيم المتعلقة بالظاهرة تعاملا لفظيا ، وبالتالي جاءت الإجابات مجرد ردود فعل ذاتية حول عناصر جزئية لواقع المبحوثات ... 2- وقد جاءت نتائج هذه الدراسة غير واضحة وذلك لعدم دقة تحديد مفهوم الوعي القانوني، كما أنها لم تربط بين وعي المبحوثين ووضعهم الطبقي وعلاقته بالمجتمع الياباني ككل ... -3- يندرج هذا العمل تحت الإطار

النظري الوظيفي ، فيقتصر حدوده على الوصف ، وإذا كانت ثمة محاولة للتفسير فهو تفسير متعجل لا يعني بالفروق الكيفية] (دكتوراه، 2001)

وعندما استعرض الباحث الدراسات ذات المرجعية الماركسية، تغير الاختلاف التعسفي إلى استرشاد تعسفي كما يظهر من العبارات التالية :

[1- وقد فسرت هذه الدراسة نتائجها في ضوء طبيعة التكوين الاجتماعي الاقتصادي المصري وطبيعة نمط الإنتاج السائد فيه ... 2- وتتضح كفاءة التوجه النظري من خلال صياغة مشكلة البحث ...مما أدى إلى الخروج بنتائج أعمق وأوسع ذات دلالات نظرية ومنهجية عن الوعي الاجتماعي ...] (دكتوراه، 2001)

5- خطاب الاختلاف العلمي :

أحد الدراسات تميزت بقدرة عالية على إنتاج النص، وتميزت بالاختلاف القائم على التحليل النقدي، ويتضح من تتبع العبارات الجوهرية الخاصة بتحليل التوجهات النظرية الباحثة في موضوع التنشئة الاجتماعية، أن العمليات الابستمولوجية التي قامت الدراسة بتنفيذها تمثل قدرة متميزة على الإنتاج العلمي المختلف، وكان من الممكن أن تكتمل هذه القدرة العلمية، باستخدام مرجعية نظرية حديثة، ولكن الدراسة بصفة عامة استعانت بمراجع عربية وأجنبية شبه حديثة:

[المتتبع لدراسات التنشئة الاجتماعية ، يواجه موقفا نظريا تتسع وتتشابك مداخله ... وبالذات ما يتصل بعلم النفس الاجتماعي ، والانثروبولوجيا ، والتربية ، وعلم الاجتماع ، ... ويرجع شوارتزمان هذا التعدد إلى ... على كل ، فإن الدراسة في هذا الفصل تثير تساؤلات من قبيل ... ، وتم تقسيم الفصل طبقا لهذه التساؤلات إلى محورين أساسيين : يتكفل المحور الأول بعرض اتجاهات النظرية الاجتماعية للتنشئة سواء ما يتصل بالأسس الفكرية التي تقوم عليها ، أو أهم إسهاماتها ، على حين يحاول المحور الثاني صياغة تصور نظري ، نراه يمتلك إمكانات أكثر ملائمة في فهم وتحليل موضوع الدراسة الراهنة] (دكتوراه، 2005)

وقد استعانت الدراسة في هذا الفصل بالاستشهاد من مصادر أصلية، وبأسلوب علمي منضبط ، حيث مثلت مساحة الاستشهاد نسبة 27% وهذا يعني أن أكثر من 70%من مساحة هذا الفصل من إنتاج الباحث، وهو ما يشير إلى وجود رأسمال علمي يكفي لإنتاج خطاب الاختلاف العلمي، ويتأكد ذلك من تتبع العبارات الجوهرية التالية التي تشير إلى تواتر ظهور نموذج خطاب الاختلاف القائم على التحليل النقدي وتطوير الأفكار المرجعية:

[ثمة مبررين أساسيين يعطيان لعلم الاجتماع مشروعيته في دراسة عملية التنشئة الاجتماعية أولها : ... والثاني : ... .ويمكن أن نجمل مجالات اهتمام علم الاجتماع بالطفل في أربعة مجالات هي : ...، ويشار هنا إلى أنه برغم التحول الذي طرأ على البناء النظري لعلم الاجتماع ، وما استتبعه من ظهور اتجاهات نظرية جديدة ، فإننا سوف نلتزم بدراسة الاتجاهات النظرية الأساسية ، باعتبار أهميتها وتمثيلها الوافي ... ومن هنا سوف نتصدى لدراسة اتجاهات خمسة أساسية هي : اتجاه العقد الاجتماعي كبداية لنشأة النظرية الاجتماعية ، والاتجاه الوضعي ، والبنائية الوظيفية ، والتفاعلية الرمزية ، والمادية التاريخية ...] (دكتوراه، 2005)

وبعد استعراض الأفكار الرئيسية لهذه الاتجاهات قامت الدراسة بتخصيص الجزء الأخير من الفصل لبناء تصور نظري للتنشئة الاجتماعية، يبدو هنا أن الباحث قام بعدد من العمليات بعد استعراض عدد من الاتجاهات النظرية، تجعلنا نصنف ممارسته النظرية ضمن خطاب الاختلاف العلمي، وهذه العمليات هي: (1) التعرف علىامكانات كل اتجاه نظري ومدى ملائمته لدراسة الواقع وخصوصية المجتمع المصري. (2) تقييم نقدي للاتجاهات النظرية السابقة. (3) بناء التصور النظري الخاص من خلال التأليف النظري، وليس الاعتماد على نظرية محددة. ويمكن تتبع هذه الخطوات من خلال العبارات التالية:

[نظرا لتعقد موضوع الدراسة ... ولخصوصية المجتمع المصري ... علاوة على ما أفصح عنه الواقع الفعلي من مؤشرات، تحول جميعا دون الوصول إلى آليات ومظاهر التنشئة من خلال الاستعانة باتجاه نظرية واحد، ...وبدت الحاجة ماسة إلى صياغة تصور نظري، يمكن أن يسمح بتفسير كافة ما يفصح عنه الواقع الميداني من نتائج ... وقبل إيراد هذا

التصور نبدأ بتقييم نقدي للاتجاهات النظرية السابقة ... التصور النظري للدراسة ..] (دكتوراه، 2005)

6- خطاب التحليق خارج السرب:

مراجعة التراث البحثي السابق، من أهم الخطوات لإنجاز بحث علمي منضبط، وتمثل جزءا أصيلاً في بناء الاطار النظري للبحث، فمن خلال التعرف على خبرات بحثية سابقة، ينجح في اختيار أدوات نظرية ومنهجية ملائمة. تقوم في جوهرها على التحليل النقدي لهذا لبعض البحوث السابقة وثيقة الصلة بالبحث الجديد، ولابد أن تتضمن المراجعة النقدية، (1)موضوع البحث وأهميته وأهدافه (2) الاطار المرجعي والنظري للبحث (3)الأدوات المنهجية (4) النتائج وطرق عرضها وكيفية تفسيرها.

في كل خطوة من الخطوات السابقة، يقوم الباحث بتحليل نقدي، لكشف الملائمة لعلمية لكل خطوة، والمبررات التي يقدمها الباحث عند انتقاله من خطوة إلى أخرى، وأخيرا تقييم الاضافة المعرفية التي يقدمها البحث. بعد انتهاء كافة المراجعات للتراث البحثي السابق، يفترض أن يقدم الباحث تقريرا بالغ الأهمية، يوضح فيه نقاط الضعف والقوة التي بدت من مراجعة هذا التراث البحثي السابق، والنقاط الغائبة عن هذه البحوث، ثم ينتهي بتوضيح الاضافة المحتملة التي سوف يقدمها بحثه الجديد. هذه المراجعة إذا تمت على هذا النحو، فإن الباحث ينجح في الالتحام بالمجال العلمي، ما يبشر أن بحثه سوف يحقق شرط التراكم العلمي في ميدان تخصصه.

والحقيقة، أننا بمراجعة العينة التي نفحصها، لم نجد هذه الخطوات والعمليات مكتملة على النحو المذكور. فبعض البحوث ينتقي عدد محدود من البحوث السابقة، ويقوم بتحليلها، وغالبا لا يراع شرط التركيز على البحوث الحديثة لإحداث التراكم المطلوب.وتلاحظ أيضاً أن البعض يحاول تمييز بحثه عن كل التراث البحثي السابق عليه، وكأنه يريد أن يبدأ من حيث بدأ الآخرون. وأحيانا يكون استعراض هذه الدراسات بصورة شكلية خالية من المضمون، وبأسلوب وصفي، يخلو من التحليل النقدي.

ففي أحد البحوث المهتمة بدراسة الطبقة الوسطى، تناول الباحث في أحد الفصول التراث البحثي السابق، وجاءت عباراته الأولى في هذا الفصل، مؤشرة على أن الباحث على وعي بأهمية مراجعة التراث البحثي السابق، وضرورته للتراكم العلمي، كما يتضح من العبارة التالية:

[يتسم التفكير العلمي بأنه تفكير تراكمي يضيف بعضه إلى بعض، بحيث يسعى كل جهد علمي إلى أن يضيف إلى الجهود الأخرى لبنة تكون أساسا لتطور علمي جديد. ويعد عرض التراث البحثي أو الدراسات السابقة محققا لصفة التراكمية لهذه الدراسة الحالية، وإثراء المعرفة حول موضوع الدراسة، وسأقوم بعرض الدراسات السابقة من خلال أربع محاور رئيسية مستوحاة من أهداف الدراسة الحالية التي تسعى لتحقيقها] (دكتوراه، 2010)

وبتحليل العينة، وجد أن الباحث قسم الدراسات السابقة إلى أربع فئات كبيرة، مرتبطة بأهداف دراسته، في الفئة الأولى، وعنوانها: الدراسات المهتمة **بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية من السبعينات إلى الآن**، وقد تناول داخل هذه الفئة سبعة دراسات، بعضها لا ينطبق عليه شرط البحث الامبيريقي، كدراسة أنطوني جيدنز "مقدمة نقدية في علم الاجتماع". وفي الفئة الثانية من البحوث السابقة والتي وضعها تحت عنوان الدراسات المهتمة **بتحولات الطبقة الوسطى في المجتمع**. قام الباحث بتحليل تسعة دراسات سابقة. وفي الفئة الثالثة من البحوث السابقة والتي وضعها تحت عنوان الدراسات المهتمة **بآليات تكيف الطبقة الوسطى**. قام الباحث بتحليل خمسة دراسات. وفي الفئة الرابعة من البحوث السابقة تحت عنوان الدراسات المهتمة **بالعولمة ومستقبل الطبقة الوسطى**، قام الباحث بتحليل أربع دراسات.

وهنا يتضح أن الباحث، قد اطلع على عدد كبير (25 دراسة) من الدراسات السابقة، ومع ذلك لم يتمكن من تحليل هذا العدد الضخم من الدراسات وثيقة الصلة بالموضوع، لأنه وقع في العديد من المشاكل الابستمولوجية، وكذلك مشاكل في التحليل العلمي لهذه الدراسات.

فالباحث منذ البداية صنف الدراسات وفقا لأهداف بحثه، متصوراً أن هذا التصنيف يفيد في مراجعة الدراسات السابقة، أي أنه خصص مجال الدراسات السابقة تعسفياً

بوضعها قسراً ضمن أربعة أنواع تتفق مع محاور وأهداف البحث. وعند مراجعة كل دراسة على حدى سوف يكتشف القارئ أن الدراسة الواحدة تعالج أكثر من محور أو هدف. هذا الخطأ الناتج عن التصنيف التعسفي، أدى إلى حدوث فوضى وعدم تنظيم وتشابك بين هذه الدراسات، ما يجعل عملية التحليل النقدي لا تتم بالصورة العلمية المنضبطة. وكان يتعين على الباحث اختيار عدد أقل من الدراسات، ويقوم بتحليلها، ثم يحدد في تقرير نهاية الفصل، نقاط الضعف والقوة في كل دراسة، وكيف يستفيد منها نظريا أو منهجيا أو معرفيا لتغطية هدف من أهداف البحث.

يضاف إلى هذه الازدحام المعلوماتي غير المنظم، أن الباحث لم يحقق وعده الذي بدأ به الفصل، وهو الالتحام بالتراث الباحث السابق، لتحقيق شرط التراكم العلمي. فقد اكتفى الباحث عند التحليل بوصف الدراسة السابقة وأهم نتائجها، دون التطرق بالتحليل النقدي لكافة جوانبها النظرية والمنهجية والمعرفية، إن لجوء الباحث إلى هذه العملية الوصفية الشكلية، لم يؤدِ إلى تمييز دراسته عن بقيةالدراسات، أو بالأحرى سيكون التمايز والوعد بتحقيق التراكم،**شكليا خاليا من المضمون، لا يقوم على التبرير العلمي، أو الوعي بفكرة الملائمة**، كما يبدو ذلك من العبارات الجوهرية التالية التي تكررت بنفس الأسلوب في غالبية الدراسات التي قام الباحث بمراجعتها:

[**دراسة السيد الحسيني (1985)المسح الاجتماعي الشامل للمجتمع المصري (1952-1981)**]هدف قضايا الدراسة الأساسية إلى تناول التدرج الطبقي وصفاً وتحليلاً ثم تناول الدراسات المصرية للبناء الطبقي في المجتمع المصري والتحولات الطبقية التي طرأت على الريف والحضر، ونمط توزيع الدخل والثروة والملكية، وتطور توزيع فرص الحياة في المجتمع المصري، والدعم السلعي وتحسين أحوال الفئات والتنظيمات السياسية والثقافية، وعرض الملامح الطبقية الجديدة التي طرأت على البنية الاجتماعية للواقع المصري خلال السبعينيات وتمثل نقطة البداية لهذا العمل في عام 1952، ونقطة النهاية في عام 1980. وتنحصر الاجراءات المنهجية للبحث في الاعتماد على المعطيات الاحصائية الرسمية من جانب وعلى المعطيات التاريخية من جانب آخر وبهذا يجمع العمل بين المنهج التاريخي

والتحيل الإحصائي. أهم نتائج الدراسة فيما يخص الطبقة الوسطى بداية من السبعينات ومرحلة الانفتاح الاقتصادي:...] (دكتوراه، 2010)

[**دراسة محمد عبد المنعم شلبى (1998) : "تحولات الطبقة الوسطى في ظل العولمة"**: تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تأثير العولمة على بنية الطبقة الوسطى وإعادة تشكيلها، ويتضح من أسلوب سرد الدراسة أن الباحث انتهج المنهج الوصفيالتحليليفي عرض الكتابات التي تناولت علاقة العولمة بالطبقة الوسطى وتحولاتها، واستخدام الملاحظة البسيطة لواقع الطبقة الوسطى المصرية، وأهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج كالتالي: ...] (دكتوراه، 2010)

ويتضح مما سبق أن الباحث، رغم اطلاعه على عدد كبير من التراث البحثي وثيق الصلة، إلا أنه لم يستطيع أن يعالج هذا التراث معالجة نقدية، ما أدى إلى غموض وتشوشفي الاسهام الحاسم الذي سوف يضيفه البحث للتراث العلمي، لتحقيق شرط التراكم، ولذلك فقد وضعنا لهذا النوع من الممارسة النظرية اسم خطاب التحليق خارج السرب، بمعنى أن الباحث لم يستطع الالتحاق بالمجال العلمي (السرب).

رابعا: النتائج والتوصيات

على الرغم من صغر حجم العينة، إلا أن عملية التحليل، أظهرت أن بحوث الدكتوراه المصرية، في علم الاجتماع، تعاني من أزمة في إنتاج أُطُرِها النظرية، حيث تلاحظ ظهور حالة من فقدان الوعي بالمستجدات النظرية في علم الاجتماع، كما اتضح أن بعض البحوثيعاني في تعاطيه للنظريات السوسيولوجية من أوهام المسرح idols theatric، حيث تتخذ النظريات الكلاسيكية المؤسسة لعلم الاجتماع مكانة ونفوذ كبيرين داخل بحوث الدكتوراه، ويبلغ التشوش مبلغه، في بعض البحوث، عندما يتم التعامل مع هذه النظريات بوصفها نظريات معاصرة.

ومن الناحية الابستمولوجية، اتضح أن بناء الإطار النظري للبحث، يعد من أصعب المشكلات التي تواجه هذه البحوث، بسبب العوائق الابستمولوجية الكامنة في الهابيتوس العلمي الخاص بالباحثين، وعليه فقد أظهرت النتائج أن الضعف الابستمولوجي

في غالبية البحوث، كامن في الجزء الخاص بالإطار النظري. كما أن غالبية البحوث تتعامل مع الدراسات السابقة، بطريقة الاختلاف المتعسف، وكأن عملية التحليل النقدي تعني نفي هذه الدراسات من الوجود، وكأن الباحث يريد أن يبدأ من حيث يبدأ الآخرون لا من حيث ينتهون.

اتضح أيضا، من تحليل العينة، أن غالبية البحوث تعاني من مشكلات لغوية مزمنة، فالكتابة العلمية التي تعاملنا معها، تتصف في كثير من الأحيان بالركاكة، ولا يمكن ترشيد هذه الكتابة دون تطوير المهارات اللغوية للباحث.

وبالجملة، فإن التفكير والممارسة النظرية في البحوث السوسيولوجية المصرية، على الحال المذكورة، يترتب عليه أزمات كبيرة في مرحلة تفسير النتائج، أقلها أن يعجز الباحث عن الاستفادة من الأدوات النظرية، في تفسير نتائج بحثه، فيلجأ **للتفسير العفوي** معتمداً على الهابيتوس العلمي له، وليس على الاطار التصوري لبحثهويزداد الأمر تعقيداً في حالة عدم امتلاك الباحث لأدوات نظرية كافية، فإنه غالبا ما ينهي تقرير البحث ممسكا عن التفسير، وكأن الباحث أصيب **بالسكتة في اللحظة التفسيرية**.

توصيات البحث:

1- إعادة الاعتبار للتفكير النقدي خلال عمليات اكتساب علم الاجتماع في المرحلة الجامعية ومرحلة الدراسات العليا.
2- استحداث برامج تدريب على المهارات المنطقية والرؤى الفلسفية.
3- تقديم برامج للتدريب على المهارات اللغوية، ولا يسمح للطالب باستكمال دراساته العليا الا بعد اجتياز هذه البرامج.
4- تغيير نوعي في برامج تدريس النظرية الاجتماعية في أقسام علم الاجتماع.
5- امداد المكتبات الجامعية بالمؤلفات النظرية الحديثة.
6- تبني مشاريع ترجمة للمؤلفات النظرية الحديثة في علم الاجتماع.
7- مراجعة طرق تقييم الرسائل العلمية.
8- تبني مشروع بحثي كبير لتحليل ونقد الخطاب العلمي السائد في أقسام علم الاجتماع في الجامعات العربية.

المراجع والهوامش:

[1] Fairclough, N, **Critical discourse Analysis: The critical study 0f language,** London, 1995,p 133.

[2] Jorgensen, M. & Philip, L, **Discourse Analysis as Theory and Method**, London, Sage Publications, 2002, p 66.

[3] Fairclough, N. ,***Language and Power*,** London, Longman, 1989, p 18.

[4] أحمد زايد ،***المعرفة والسلطة –نحو نموذج أخلاقي للتنشئة العلمية*** ، مؤتمر أخلاقيات البحث العلمي الاجتماعي، تحرير ناهد صالح ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة، 16-18 أكتوبر 1995 ، ص ص (229-249).

[5] السيد يسين **الإنسان الأكاديمي بين الانحراف الشخصي والاختلال الاجتماعي** ، مؤتمر أخلاقيات البحث العلمي الاجتماعي، تحرير ناهد صالح ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة، 16-18 أكتوبر 1995، ص ص (281-300).

[6] عبد الوهاب جودة عبد الوهاب، ***ملامح الوعي الاجتماعي لدى الباحثين في ميدان علم الاجتماع وانعكاساتها على المنتج البحثي*** ، رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية الآداب ، جامعة عين شمس، 1996 .

[7] مروة صلاح الدين عبد الله محمود***للتنظيمات الأكاديمية لعلم الاجتماع وأزمة الإبداع السوسيولوجي في مصر – دراسة تحليلية ميدانية في سوسيولوجيا التنظير***، رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية الآداب ، جامعة القاهرة، 2003.

[8] نفيسة حسن حسن دسوقي ***أساليب التنشئة الأكاديمية للباحثين في علم الاجتماع في مصر – دراسة استطلاعية*** ، رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية الآداب ، جامعة القاهرة، 2004.